# تبصرة وذكرى

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

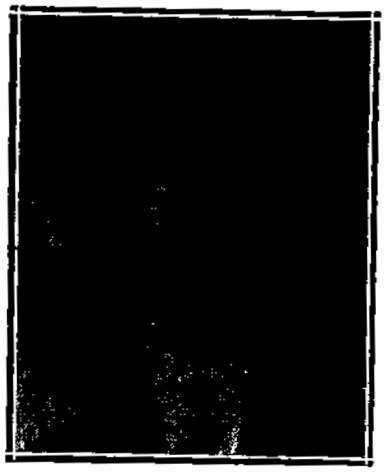

ليس خيراً فى الاحتفال بذكرى هجرة الرسول من الاجتهاد فى إحياء سنته صلوات الله عليه عن طريق التنبيه إلى بعض الأخطار التى تحف بها فى هذا العصر الذى تكالبت فيه عليها الميول والشهوات ومختلف النزعات الناجمة فى الغرب، والتى توشك إن لم يجتهد أولو الرأى والدين فى صدها وإيقافها عن حدها أن تطمس من نور سنة صاحب الهجرة صلى الله عليه وسلم ونور كتاب الله نفسه، فتعمى قلوب بعد إبصار، وتنشأ ناشئة المسلمين فى دياجى الشك بعد أن كان يرجى أن تنشأ فى نور اليقين

وأخطر تلك النزعات الناجمة والشهوات الهاجمة نزعة التشكيك فى أحكام الدين من ناحية، وشهوة تأويلها إلى ما يتفق وما يسمونه روح العصر، أو بالأحرى رأى الغرب وحكمه من ناحية أخرى. وأصحاب هذه النزعة حين يذكرون روح العصر أو يدعون إلى اتباع الغرب إنما يريدون تقمص روح الغرب واتباع خطواته فى الاجتماعيات، أى فى الميدان الذى ما نزل الدين إلا لتنظيمه، وما جاء الرسول إلا لتقويم الحياة فيه. والغرب كما نبهنا فى مثل هذا المقام من قبل لم يصب سنن الله إلا فى عالم المادة أما فى عالم الروح والاجتماع فالغرب لم يصب سنة ولا حكما، بل هو فى حيرة من أمره: يضطرب بالنظم المتناقضة، ويعج بالآراء والنظريات، ويميد بالأهواء والشهوات، حتى أصبحت عوامل القوة والأمن التى أصابها من ناحية علومه الطبيعية، هى بذاتها عوامل الخطر والخوف فيه؛ وأصبح من مدنيته هذه المادية المسرفة المغرورة كالساكن على حرف بركان

لكن الذين يدعون إلى الغرب فتنتهم قوته المادية، وجهلوا ضعفه الاجتماعى، فظنوا أن القوة فى ناحية معناها القوة فى كل ناحية، وأنه لما كان على حق فى طبيعياته، فهو على حق فى اجتماعياته؛ فسبيل النهوض والقوة فى زعمهم هو أن يدع الناس ما هم عليه، ويأخذوا بما هو عليه، لا يبالون ماذا يتركون، ولا يترددون ماذا يأخذون

لكنهم نظروا أيضاً فوجدوا أن هذا معناه الدعوة إلى ترك كثير مما أمر به الاسلام والأخذ بكثير مما نهى عنه. والاسلام مهما ضعف فى نفوس أهله فقد بقيت من روحه فيهم ومحبته بينهم بقية لا تؤمن معها عواقب هذه الدعوة على الدعاة من ناحية، ولا يرجى معها من ناحية أخرى أن يستجيب أهله إلى ما يخالف نظمه وأحكامه التى جرى عليها المسلمون منذ قام صاحب الهجرة صلوات الله عليه فوضح للناس الدين حكما وعملا باسم الله فاطر السموات والأرض وفاطر الناس. هنالك ذهب دعاة الغرب مذاهب، وانقسموا طرائق، فيما يدعون إليه، وكيف يحملون الناس عليه

فمنهم من نظر فإذا القوة بيده، ولاه الناس اياها فى ثقة به وغفلة عن نيته، فرآها فرصة سانحة قد لا يؤتيه الزمن مثلها لحمل الناس على ما يريد، وتحقيق ما كان يتمناه من زمن بعيد، فحمل قومه على غير الدين، بنفس القوة التى ائتمنوه عليها للدفاع عن الدين. واشتط حتى كان يشنق فى سبيل القبعة، ويحبس ويجلد فى سبيل السفور والاختلاط؛ ولم يقف حتى جرد الدولة عن الدين، وحال فى أمته بين الإسلام وبين الحكم الذى هو أخص خصائصه، وحتى استبدل بأحكامه أحكام أوروبا فى الميدان الذى لم تكن أوروبا لتطمع فى غزوه: ميدان الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وتوريث. وشاءت رحمة الله ألا يطرد النجاح لهذا الصنف من المقتونين ممن أراد حمل الناس على سنن الغرب بالقوة رغم الدين، فكان من هؤلاء من أفلح قومه فى الثورة عليه غضبا لدينهم حتى أنزلوه عن عرشه وشردوه عن بلده، فكان فيما لقيه من الهزيمة والتشريد بعض العزاء للمسلم الذى ينظر الى ما يجرى فى أقطار الاسلام الأخرى من بعيد، وشبه إنذار لمن عساه أن تحدثه نفسه بسلوك نفس الطريق. فوقف الخطر

من هذه الناحية وإن كان يخشى أنه لم يزل ، إذ يخشى أن يكون هذا النوع من الخطر كامنا فى بعض الأقطار ينتظر الفرصة ليشب كالنار

على أن مقلدة الغرب والمتحمسين له ليسوا كلهم ممن يستطيع أو يرجو أن يستطيع أن يحمل الناس على خطوات الغرب بالقوة. والذين ليس بيدهم القوة من دعاة الغرب لم يحملهم فقدان القوة على ترك السعى إلى غرضهم ، بل هم دائبون ناصبون فى سبيله لكنهم يكيفون وسائلهم بما يلائم الظروف . صحيح أن جميع وسائلهم يصح أن تتلخص فى « بث الدعوة » لكن سبيل الدعوة معبد لهم ميسر ، فإن جميع ما يراه الناس ويسمعونه فى ملاهيهم ومتروضهم ، وجميع ما يقرأونه للتسلية لا يخلو مما يألفهم إلى ما ينافى الدين ويبث فيهم روح الغرب الماجن من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون : فالأغانى بألحانها ومعانيها المنهالكة . والراديو بما يذيعه من مهازل المسارح ومما جن الصالات ، والسينما بما تعرضه من روايات صنعت فى الغرب لتمثل فيما تمثل نواحى الشهوات فيه بما يغرى بها الناس ، والمجلات والجرائد بما تنشر من قصص غير طاهر وصور غير نقية منقول أكثرها عن مجلات الغرب وجرائده من غير نظر الى الشرق والى البلاد الاسلامية منه على الأخص — كل هذا وكثير غيره يعمل عمله فى النفس المسلمة الناشئة وغير الناشئة فتضعف من روح التدين فيها ، وتمهد للغرب ودعاته سبيل الاستيلاء عليها

هذه العوامل فى ذاتها خطر كبير ، لكن لا يزال هناك فى المسلمين شعور بأنها خطر ، وأن من الواجب مقاومتها والعمل على تلافى آثارها . صحيح ان هذا الشعور اكثره كامن لا يبدو إلا حينا بعد حين ، وإذا ظهر قويا فترة عاد إلى مكمنه فترات ، لكنه على أى حال شعور سليم ، وهو على كل حال موجود منتشر ، ووجوده هو معقد الأمل والرجاء ان يصير يوما ما قوة دافعة تدفع هذه الكتل البشرية الاسلامية فى طريق الاسلام لتحيا فى بلادها حياة مسلمة ، ولتقيم على الأرض مرة أخرى دولة لا يكون الحكم فيها إلا لله العلى الكبير

لذلك كان الخطر الأكبر والشر الأعظم هو ما اتجه إليه دعاة ما يصح أن يسمى باللاإسلامية ، من تخدير هذا الشعور الاسلامى وإضعافه ثم إطفائه لما أوجسوا منه خيفة ، ورأوا فى إحساس المسلم بفرق ما بين تعاليم الغرب وتعاليم الاسلام ، عقبة العقبات فى سبيل دعوتهم التى يبثونها والتى ما فتئوا يوهمون الناس أن الخير كل الخير فيها . فتقت لهم حيلتهم ولطف كيدهم أن يتيموا هذا الشعور ويزيلوا هذا الاحساس فاتخذ كل منهم سبيلا إلى نفس الغاية ، او بالاحرى لم يدعوا سبيلا إلى تلك الغاية إلا سلكوها .

فمنهم من جعل يوهم المسلم المحافظ المتحفز للمقاومة أن المقاومة غير مجديه . وان روح العصر لا شك غالب . ففيم المغالبة والامر مفروغ منه والنصر مكتوب لاهل الرأى الجديد من الجيل الجديد ؟ وهذه طريقة قد اثرت فى كثيرين بل قد افلحت مع بعض من كان يظن انه اعقل وأبصر من ان يجوز عليه هذه الخدعة من اهل القلم من المسلمين . فكتب حديثا يئس فئة الشباب المتمدين فى حرمهم الدينية الحديثة ضد الاحتلاط ، لا لان الاختلاط عنده صواب ولكن لأن وقت المقاومة قد فات . إذ الاختلاط قد بدأ منذ خمس عشرة سنة أو يزيد ! ولو كانت هذه الحجة على اساس من الحق لما أصابت الدعوة اللاإسلامية شيئا من النجاح ، لان عمرها كله لا يزيد على ربع قرن ، ومع ذلك لم ييأس اهلها ان يبدأوها برغم القرون الكثيرة التى رسخت فيها تلك النظم والتقاليد الاسلامية التى قاموا لمحاربتها : وقد بدأوها بالفعل واصابوا — لما اغتر المسلمون بقوتهم وضعفها — هذا النجاح الذى أوحى إلى ذلك الكاتب المسلم ما وحى من الكلام .

ومنهم من يحاول إدخال الطمأنينة على قلوب المسلمين المتململين بايحائه إليهم ان لا ضير ولا خوف على الدين من ترك دعاة ما يسمونه الجديد ينشرون دعوتهم بيسار وشمال فى ادمغة الاطفال، وفى عقول النساء والرجال ، لان الحق سيتضح والباطل سينهزم والاصلح سيبقى ، وبتركهم يفهموا ان الباطل سينهزم من نفسه ، والحق سينتصر على رغم قعود اهله ، وأن الدين له رب يحميه : وإذ فليس هناك من داع إلى أن يعملوا هم على نصرته او يكلموا أنفسهم مشقة الجهاد فى سبيله . ويصادف هذا الايحاء نفوساً تحركها للقيام كنحركها للقعود ، فتجنح إلى القعود والراحة مرة أخرى وتترك الميدان خلواً أو شبه خلو لأولئك الدعاة ، وهى

بذلك تعرض نفسها للهلاك لأن رب الدين حين يحمى الدين يحميه طبق سنته التى خلت فى الاولين باهلاك القاعدين واستخلاف غيرهم من المجاهدين الذين ( يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ) .

وأبلغ فى الكيد من هذا إذا أرادوا أمراً وعارضهم حكم الدين أن يشككوا فى ذلك الحكم ويزعموا للناس أن ليس فى الدين ما يمنع مما يريدون ؛ فإذا قيل لهم إن الحكم ثابت عن طريق الإجماع أنكروا الاجماع أن يكون أصلا من أصول الدين ، أو طالبوك بأن تثبت انعقاد الإجماع ؛ فاذا جئت لهم بالنص على انعقاده تجده فى بطون الكتب ، جوزوا أن يكون الكتاب قد أخطأ أو أن يكون صاحبه قد كذب ، أو احتجوا لرأيهم برأى شاذ لبعض من كان لعله مثلهم فى ماضى الاسلام من الخارجين عن جماعة المسلمين . ولو كان الحكم لا يثبت فى الدين لرأى شاذ يراه واحد ولو كان من أهل العلم ما انعقدت بيعة أبى بكر ، فإن خلاف سعد بن عبادة وهو من كبار الصحابة فى أمر تلك البيعة معروف ، بل إذا كان الحكم فى جماعة ما يمكن تعطيله بمثل حجتهم الواهية هذه ما أمكن تنفيذ حكم أو دستور فى أمة من الأمم فى هذا العصر أو فى أى عصر ، ولكان قولهم هذا أبلغ ما يبرر به حكم الفرد ، إذ يصير حكم الفرد فى هذه الحالة هو البديل الوحيد من الفوضى

فإذا كان فى الحكم نص من السنة الكريمة واحتججت للحكم بذلك النص شككوا فى السنة وقالوا إن الذى وضع على الرسول كثير ، فلعل هذا من المكذوب الموضوع . فاذا قلت إنه قطعا ليس من الموضوع لأنه وارد فى الصحاح ، قالوا إن الحديث الصحيح لا يمكن الجزم بأنه ثابت قطعا عن الرسول ، فإن ما ثبت قطعاً عن الرسول هو المتواتر وهذا محدود معدود

ويحاولون أن يشككوك فى الحديث جملة باستغلال أمانة علماء الحديث ومبالغتهم فى التدقيق عند تمييز درجات الحديث ، إذ جعلوا الاحتمال العقلى البعيد للسهو أو النسيان أو الخطأ فارقا بين الصحيح وبين مالا يمكن أن يتطرق إليه إلا ذلك الاحتمال وهو المتواتر مع أن حديث الرسول قد محص بما لم يمحص به حديث أو رأى أو فعل صدر عن بشر كائنا من كان ، وأن هذا الحديث الصحيح قد صح عن الرسول بالسند الممحص المنقود فاختبر عن طريق تمحيص السند من بين مئات الآلاف من الأحاديث فلم يتجاوز عدده بضعة الآلاف ، منها كثير مشترك . والمبالغة فى التدقيق فقط هى التى تجيز عقلا من بعيد ألا يكون مثل هذا الحديث مقطوعا بصدوره عن الرسول برغم ذلك التمحيص الدقيق . ولو كان مثل هذا الاحتمال مسقطا للحديث لسقط التاريخ كله ولكان من العبث الاعتماد على تاريخ ، أو كان هذا الاحتمال يجيز إهمال الحديث فلا يعمل به لجاز إهمال كل ماهو فى مرتبة دون مرتبة اليقين فى العلم وفى الفلسفة ، مع أن العلم يتمسك بالنظرية الراجحة حتى يثبت بطلانها ؛ وأولئك المشككون أنفسهم يستندون فى تدعيم آرائهم إلى آراء ونظريات هى من ناحية الثبوت فى العلم أو الفلسفة دون مرتبة الحديث الصحيح بكثير من ناحية الثبوت فى الدين . على أن الاجماع منعقد بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم بوجوب الأخذ فى الأحكام بالحديث الصحيح . بل إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يأخذون فى أحكامهم بالحديث يثبت عن الرسول عن طريق فرد ذكر أو أنثى ، وكانوا يرجعون عما عساهم يكونون ارتأوه أو حكموا به مما يخالف ذلك الحديث كما ترى توجيه ذلك مفصلا فى الرسالة التى كتبها الامام الشافعى مقدمة للأم فى الأصول

ويلتحق بهذا النوع من كيد أولئك المشككة المعطلة ما يحاولونه من تعطيل القرآن وإبطال مفعوله عند المسلم بالتوسع فى تأويله وصرف الآى عن وجهه وتخصيص عمومه وتخريجه على نحو يوافق ما يريدون ويعتقدون من آراء الغرب ونظرياته . ولقد لطفت حيلتهم فى هذا حتى وقع فى أحبولتها بعض قصيرى النظر ممن ينتسبون إلى الدين من المسلمين ؛ ووقوع ولو واحدا من رجال الدين فى أحبولتهم تلك دليل على مبلغ الخطر الذى يحف بالاسلام اليوم فى بلاده وصميم أهله . وإذا لم ينهض المسلمون لدرء هذا الشر ويصدقوا الله الجهاد فيه غير متوانين ولا متواكلين ولا مسوفين ، فسيجزيهم بتراخيهم ذلة فى الدنيا ، ويستخلف من بعدهم قوماً آخرين يؤيد بهم دينه الكريم ( ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ) .

محمد أحمد الغمراوى